البدو

لجناب رفعتلو سليمان افندي البستاني (تابع ما قبلهُ)

والبدو جميعاً منطبعون على حب البذل والسخاء وهو شأن كل القبائل البادية "والمضايف" او منازل الضيوف مستقلة في كل قبيلة بل في كل جماعةٍ سواء قلت ام كثرت . والمضيف الاكبر للشيخ او الامير يحل فيهِ القاصد والشارد من ابناء السبيل يقضي ما شاء من الايام واذا اولمت له الولائم بادر اليها كل من حضر بلا دعوة ولا تكلف على ما تقدم وحيث لم يكن شيخ فكل البيوت تكاد تكون مضايف ولهم في ذلك مصطلحات عامة . فالغريب حيث حلَّ بادر اهل البيت الى اكرامهِ بحيث لو اتى منزلاً ولم يكن صاحبهُ فمن حضر يقوم مقامهُ ولا يسوغ لغيرهِ ان يدعوهُ الى منزلهِ فيحسب اهانةً لصاحب البيت . وقد تثور بينهم مشاجرات ومنازعات في التسابق الى ايواء الضيوف . والنساء ان غاب الرجال يقمنَ مقامهم وان تعذرت احداهنَّ عن الواجب لثيت اشد العقاب من زوجها او وليها . والقهوة عندهم لا بد منها في كل مضيف ولا يقدم للضيف منها الاَّ ما حمس ودقَّ بالحضرة ولهم في دقها نغن غريب بحيث يجعلون الدق موزوناً اوزاناً تكاد تكون شعرية

ومن قبيل السخاء بالمال سخاؤهم بنفوسهم ومراعاة الجار ومن اشجارهم فاذا "فزّعوا" او استنجدوا هبوا الى الغارة كما لو كان العدوُّ مقبلاً عليهم وقد لا يراعون في ذلك تحالفاً سابقاً و "النزعة" او النجدة لا بد منها لكل مستجير وقد تكون ايضاً لغير المستجير اذا كان حليفاً بحيث لو سمعوا "الهوسة" او غناء التحمس عن بعد وعلموا انهُ من حلفاء لهم بادروا الى اغاثتهم ومددهم وان لم يدعهم احد . وهم لا يضنُّون بشيء من المال والجهد الاَّ بجياد خيلهم فانَّ لها عندهم مقاماً لا يتصورهُ الحضر فقد يجود البدوي بكل مالهِ ولا يجود بفرسهِ اذا كان اصيلاً مهما بذل لهُ فيهِ من المال

ولهم في الطب والجراحة المام مخصوص بهم يداوون مرضاهم بما عرفوهُ بالاختبار والارث فاكثر الطب للنساء واكثر الجراحة للرجال على ان خشونة معيشتهم وكثرة تنقلهم تمنعان عنهم الامراض فانهم لا ينشقون الاَّ الهواء الصافي ولا يكثرون من خليط المآكل واذا بلاهم المرض تحملوهُ بالصبر والتجلد . وهم مع ذلك يحسنون المعالجة في بعض الاحيان باتخاذ ادوية فعالة يستخرجونها من عناقير الارض في البرّ او يستجلبونها من الديار العامرة . وقد شهدتُ لهم اعمالاً جراحيَّة وطبية ذات شأن . فمن ذلك مثلاً انهُ في بعض الغزوات شُقَّت جلدة بطن واحد منهم

فبرزت الامعاء ولم تنثلم فالقوهُ على ظهرهِ فاستقرَّت الامعاء في محلها فاتوا بابرة من إبر الخياطة وخاطوا بها الجلدة وحفروا حفرة في الرمل وارووهُ فيها الى قرب العنق ثم حفروا على بعدٍ يسيرٍ منهُ خندقاً صغيرًا على شكل دائرة حولهُ واتوا بالحمض والقتاد اليابس من نبات البر واضرموا النار في الخندق الى ان خمد اضطرامها فردوا عليها التراب وتركوهُ وشأنهُ زهاء ساعتين فاخرجوهُ وبادروهُ بالمرق ولبن النياق وهو مسلقٍ على ظهرهِ وما لبث مدة يسيرة حتى نال الشفاء التام. ولهم في معالجة الداحس طريقة غريبة فانهم يأتون ببعير يتخونهُ وينفخون فمهُ ويجعلون المصاب يدخل يدهُ فيهِ ويجعل الاصبع المصابة تحت لسان البعير ويشدون فم البعير لئلاَّ ينطبق و يمسق اليد فتبقى الاصبع اقل من ربع ساعة ثمَّ تخرج والمادة ممتصة منها فتطلى بالدهن وتربط مدة فتذهب العاهة. والكيّ عندهم شائع الاستعمال فيعالجون بهِ الناس والخيل والابل وسائر الحيوان على انهُ انجع الادوية في داء المفاصل والامراض العصبية. واكثر اعتمادهم في الطب على الصلبة الذين تقدم ذكرهم

ولبعض شيوخهم ولع في قنص الغزلان والارانب وطير الحبارى يخرجون اليها فرسانًا بالبازي والشاهين على ايديهم فوق اكفٍّ من الجلد لئلاَّ تؤذيهم المخالب وتتبعهم الكلاب السلاقية فاذا تراءت الحبارى للبازي ويراها قبل الناس طلب الانفلات من يد صاحبهِ فيطلقهُ ويغير وراءهُ حتى يدركهُ فوق الحبارى يمتص من دمها ويأكل من لحمها فينزل عن فرسهِ ويأخذه. ويأخذ الحبارى ويستأنف المسير. اما الارانب فتقتنصها الكلاب والغزلان تقتنصها الكلابُ والطير معًا فيُطلَق عليها الطير ينقرها في رؤوسها وعيونها حتى يعمي ابصارها وتثيرها الكلاب فتبطش بها. ولهم طريقة أُخرى في قنص الغزال لا يطيقها غيرهم. فاذا قلَّ الماء من البر في الصيف حفروا حفرًا عميقة عند موارد المياه واستكنوا فيها بينادقهم دون ان يستروها بشيء من حرارة الشمس لئلاَّ تنفر الظباء فاذا قاربت الشمس الهاجرة واشتدَّ القيظ طلبت الظباء الموارد لتروي ظمأها وانتهى افواجًا فيرمونها وقد يطرحون منها عدَّة بطلق واحد

اما اللغة فهي في انحطاط عظيم عن ذي قبل وان كان الكلام في عامَّة البدو اصح منهُ في سائر البلاد التي غلبت فيها اللغة العربيَّة. فاللفظ اضبط والكلام نقيٌّ من خليط الالفاظ الاعجمية الاَّ فيما جاور البلاد العامرة واكثر الحروف يُنطَق بها على وضعها الاصلي في اكثر البدو ويشذُّ بعضهم شذوذًا خاصًّا في بعض الحروف الاَّ الضاد التي هي سمة العرب فالشذوذ فيها عام ويلفظونها جميعًا بلفظ الظاء. اما الثاء والذال والظاء فجميعهم ينطقون بها على مخارجها الوضعية. ولهم اختلافات كثيرة بلفظ الجيم والقاف والكاف. فالجيم ينطق بها في قبائل المنتفق على الفرات بلفظ

الياء فيقولون "يَبَل" اي جبل . ويُنطق بها في قبائل نجد بلفظ متوسط بين الياء والجيم المصرية الخفيفة . ويُلفظ بها في بني لام على دجلة وبعض قبائل المغرب بلفظ اهالي سوريا . وفي سائر البادية كالجيم الفارسية او بصوت ممتزج من الدال والجيم . والقاف في كثير من الكلام تُلفظ جيماً في المنتفق فيقولون "جليب" اي قليب و"عجج" اي عشق . وبلفظ يكاد يكون مزدوجاً من التاء والزاء في قبائل نجد وتيم على شط العرب فيقولون "تزليب" و"عشتز" وكالجومل السريانية او الكاف الفارسية في سائر البدو وقد يُنطق بها على مخرجها المعروف . وليس اثقل على آذانهم من لفظها همزة كعامّة سوريا ومصر . والكاف في كثير من الالفاظ كالجيم الفارسية وهو حنكي في ضمير المخاطبة فلفظها كذلك علامة فارقة بين المذكر والمؤنث اما قبائل نجد وتيم فينطقون بها من مخرج التاء والسين معاً كالتاء الايطالية . ويؤخذ من هذا التباين امور كثيرة لا محل لايرادها

اما الشعر فانحطاطه من جهة اللفظ اكثر منه من جهة المعنى لان البدو ولعون في كل زمان ومكان بالاساليب الشعرية ولهم في صفاء جوّهم وخلوّ بالهم اكبر مساعد . فشعراؤهم كثيرون يقولون القصيد ويتفننون بكل الفنن من قبيل الالفاظ والاوزان ولكنهم لا يزالون يوردون المعاني التي تواتر سردها من اقدم ايام الجاهلية . يتغزلون ويشببون ويتحسرون ويمدحون ويهجون ويذكرون الآثار والمنازل الدارسة والديار العافية ويكثرون من وصفها حتى يخال السامع انها حصون دكّت ومدائن اضمحلّت وما هي الاّ منازل حلوها اياماً وغادروها لا بناء فيها ولا غرس . فلو قرأ القارئ مثلاً وصف الرقيين في الشعر الجاهلي وما تلاه في زمان المولّدين والمعاصرين من البدو والحضر لتوهم انهما حديقتان تفردتا ببهائها وانتظامها وما هما الاّ بقعتان صغيرتان تجتمع اليهما المياه في زمن الشتاء واذا جف الماء نبت فيهما العشب في زمن الربيع وهما اشبه بيدرين من بيادر البقاع . فالحضري لا شك يحتقر الوصف ان لم ينظر المشهد على انه لو رآهما بنضارتهما في البر القفر تأثّر تأثّر البدوي واكثر . وهم لا يزالون يكثرون بشعرهم من وصف الخيم والخيل والابل والماء والسراب الى غير ذلك مما شهدته ابصارهم ووافق معيشتهم من الامور الحسّية على ان لهم ايضاً في الامثال والحكم والاستعارات الفطرية تصورات بديعة يصعب الاتيان بمثلها على من اثقل دماغهُ بالجزة البلاد العامرة . وقد ينظمون "القصيد" الارتجالي كما ينظم "القوّالون" المغنّى" في جبل لبنان . ولهم اهاجي ومعيّبات والغاز يلقونها ويتناقلونها ونذكر منها مثالاً لغزاً في القهوة

عشيرتي يا وَيّ وَيّ من عَشيرَهْ عشيرةٍ لولا الزعل مالها مْثالْ
حمّاقةٍ حين الدّقي السّميرهْ في حرقها جابت الدمع احمالْ

دنانيها بيدي عَيْنا زَفِيرَهْ تاني بْجَلسها أجاويد وَأنذالْ
واحدْ . تَدَنَّاها بلَيَّا خَسيرهْ وْواحد على قربها ينفذ المالْ

اشار الى انها اذا أُدنيت الى النار اشتدَّت حمّاً واهمت الدمع بغزارة فورانها والباقي واضح

اما هيئتهم الاجتماعية وسائر اخلاقهم وعاداتهم فهي اقرب ما امكن الى الحالة الفطرية لا يتكلفون في شيء من اطوارهم واعمالهم ولا يتثاقلون من الامراض والنوائب وهم اقل مبالاة بالحياة من الحضر فلا يحزنون على الميت الاَّ ريثما يُدفن ولكنهم يكمنون الضغن في صدورهم ولا يعفون عن الاساءة ويترقبون كل الفرص للاخذ بالثار ولو مضت عليه اعوام وسنون . وهم قليلو الاعتناء باجسامهم ولا يضرُّهم عدم الاعتناء حتى ان الحوامل لا يتخذنَ الاَّ القليل من اسباب المداراة وقد يضعن وهنَّ سائرات في الطريق وليس من يعولهنَّ بشيء فيجرين باجسامهنَّ كلما تجربه القوابل ويلففنَ المولود ويسرنَ به . والافراح والمآتم كثيرة الضجة ولكنها قصيرة المدة والرجال والنساء يشتركون فيها مساً ففي الافراح يقيمون الموسة ويكثرون الغناء ويطلقون البارود ويرقصون ويطربون وليس عندهم من آلات الطرب الاَّ الربابة وهي اشبه "بالكمنجة" ونوع من المزمار والدفوف . والنساء ايضاً يتخذنَ لهنَّ محفلاً خاصاً يغنينَ ويرقصنَ ويترنَّ في الدفوف . ويؤثرون الزيجة في الاقارب ولا يأنهم باقل الضرر خلافاً لمذهب اكثر الاطباء وهي عادة قديمة فيهم وان قال قائلهم

تركتُ أَبنة الاعمام وهي حليلتي مخافة ان تضوي عليَّ سلائلي

اما المآتم فاكثر الضجة فيها للنساء

وليس عندهم شيء من المعارف وهم مع ذلك يدركون امورًا كثيرة بالسليقة يراقبون سير النجوم ويتخذون منها أدلَّة في رحلاتهم واذا أُتي عليهم امر لم يتعلموه قلبوهُ حالاً والقراءة والكتابة مجهولتان في البادية الاَّ بين بعض ابناء الشيوخ ونزر قليل غيرهم يستفيدون "ملالي" المعلم ومَن ختم منهم القرآن الشريف أُقيمت في بيت اهله مأدبة واحتفال كاحتفال الزفاف ويُرَّن من ثمَّ على ركوب الخيل وشنّ الغارات "والملالي" ايضاً هم الكتاب عند الرؤساء والائمة في الصلوة والعقود ولهم بينهم منزلة كبرى واكثرهم من الحضر اما الصناعة فيعرفون منها بعض ما هو ضليق بلوازمهم كنسج بيوت الشعر ويعتمدون في ما سوى ذلك على البلاد التي يسابلونها . والزراعة مستعملة في القبائل التي سبقت الاشارة الى بعضها ولا يأتونها عن رغبة بل عن حاجة (والحاجة ام الاختراعات) فمنازلهم هي التي تسرقهم اليها فعلى شواطيء الانهر يزرعون الحنطة والشعير والعدس والماش والطرطان والسمسم وسائر انواع الحبوب وحيث فاضت المياه كالمندبة والعمارة زرعوا الارز وحيث زاد

الفيضان وكثرت الاهوار اكثروا من تربية الجواميس والاعتناء بها حتى انهم على بعض سواحل الفرات حيث يكثر ويكبر الذباب "والبق" (البعوض المؤذي) يصطنعون "كللاً" اي ناموسيات مخصوصة لجواميسهم يسترونها بها ليلاً خوفاً على جلدها الرقيق . والذين قدم عهدهم بالزراعة كادوا يحضرون وتحضّر منهم كثيرون فيما مضى فتدرجوا من سكن الخيم الى "الصرايف" المبنية من سعف النخل وغيره ومنها الى بيوت الاجرّ والحجر ويا حبذا لو كثر عدد المتحضرين في البلاد المجاورة لهم الكانزة جواهر مدفونة فينقلب شرهم خيراً وينفعون وينتفعون

ويليق بنا ان نذكر في الختام انهُ منذ تولّى الحضرة الشاهانية عرش الخلافة العظمى صُرفت العناية الخاصة لاسعافهم وتهذيبهم فعمرت بذلك بلاد كثيرة على الفرات ودجلة والامل بالله كثير ان شاء الله

اثر الطبيعة في الشريعة

لجناب ابرهيم افندي ميخائيل جمال

المفهوم من الشرائع المدنية عند العموم انها حدود وضعها البشر ليعرف كل انسان بها حقوقهُ فيطلبها وواجباتهِ فيؤدّيها وان ارادة الشارع وحكمتهُ هما القاعدتان الاساسيتان لبنائها والمبدآن الاوليان في انشائها فالفروق والمباينات والاختلافات الكائنة في اصولها وفروعها عند امةٍ غير ما عند الاخرى انما هي للاختلافات والمباينات الكائنة في عقول وطباع واضعيها عند كلا الامتين والتبديلات والتغييرات الطارئة عليها في كل زمان ليست هي الا نتيجة السبب عينهِ اي موت قديمها مع قدم اهلها وحياة جديدها مع جديدهم وبالجملة فهي وضعية خاضعة لارادة الواضعين ظالمين كانوا فظالمة او عادلين فعادلة ثابتين على عوائدهم وتقاليد آبائهم واجدادهم فثابتة او متقلبين فمتقلبة * هي لسان حال الامة والى الامة وحدها يساق المدح والذم التخطئة او التصويب في شانها ولا مشاحة في ذلك اذ يرى لهُ من كل جهة ادلة عدة وبراهين جمة

والغالب ان يقف الانسان عند هذا الحد ولا يتجاوزهُ الى ابعد منهُ ولكن اذا تاملنا واقع الامر واستقصينا الاشياء الى اصولها وجدنا ان هناك اسباباً اخرى هي احرى ان تكون الاصل في وضع الشرائع والسبب في الاختلافات الناشئة فيها والتقلبات الطارئة عليها لانها تفعل في الانسان نفسهِ وتؤثر في طبائعهِ وتكيفهُ خلقاً وخلقاً نعني بها الاسباب